الدرس الثاني والثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

[الإنسان: ١ - ١٤].

هذه سورة الإنسان التي كان النبي ﷺ يقرأ بها يوم الجمعة في صلاة الفجر مع سورة السجدة؛ لما فيهما من الوعظ والتذكير، وبيان بداية الإنسان ونهايته[1].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٨٩١، ١٠٦٨)، ومسلم (٨٨٠) =

قال ﷻ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾: «﴿هَلۡ﴾» معناها: «قد»، أي: قد أتى، وليست للاستفهام، وإنما هي للتحقيق والتقرير، أي أنه قد أتى على الإنسان، أي: مضى ومرَّ وقت على الإنسان، والمراد بالإنسان هو آدم عليه السلام وذريته.

وقد ذكر الله ﷻ في هذه السورة أحوال هذه الإنسان، وهي أحوال ثلاث: قال ﷻ:

الحالة الأولى: وهي ما قبل خلقه، قال ﷻ: ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾.

الحالة الثانية: وهي ما بعد خلقه وابتلائه وامتحانه في هذه الحياة الدنيا.

الحالة الثالثة: هي حاله في الدار الآخرة بعد البعث والنشور.

فقوله ﷻ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ أي: مضى عليه، ومرَّ عليه.

﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ أي: وقت من الزمان لا يعلمه إلا الله ﷻ، وذلك قبل خلق آدم عليه السلام، ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أي: كان قبل خلقه لم يكن شيئًا، ولا وجود له، فليس الإنسان قديمًا، فكل المخلوقات ليست قديمة، ولكون كله حادث والأول هو الله ﷻ، الذي ليس قبله شيء، والمخلوقات محدثة بعد أن لم تكن، وذلك بقدرة الله ﷻ، ومنها هذا الإنسان فإنه ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾.

ثم إن الله ﷻ خلق آدم عليه السلام أبا البشرية من تراب صار طينًا حَمَأ مسنونًا،

= وفيه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ».

خلق منه آدم عليه السلام، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، من تراب، ثم من طين حَمَأ مسنون، وهذا من عجائب قدرة الله ﷻ كيف أنه خلق من التراب ومن الطين الحمأ المسنون هذا الإنسان، الذي فيه عجائب قدرة الله ﷻ من جسم وعقل وسمع وبصر وحواس، مع أنه كان معدومًا في الأول؛ كما قال الله ﷻ لنبيه زكريا عليه السلام: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، فهو موجود من العدم، ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

وذرية آدم من نطفة، قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، ثم إنه ﷻ فخلق ذريته ونسله من نطفة، وهي المني، ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلطة بين مَنِيّ الرجل، ومَنِيّ المرأة تنزل عند الجماع مَنِيّ الرجل أبيض غليظ، ومَنِيّ المرأة أصفر رقيق، فيجتمعان، فيخلق الله ﷻ من مجموعهما الإنسان ذكرًا كان أو أنثى، فقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ابن آدم، ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلطة.

ثم قال ﷻ: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: أن الحكمة من خلق هذا الإنسان وإيجاده أنه يبتلى ويمتحن بما يجري عليه في حياته من الخير والشر، ومن السرور والحزن، ومن الغنى والفقر، والأحوال المختلفة، الله ﷻ يبتليه ويختبره؛ ليتميز الإنسان الشاكر الصابر الذي يشكر عند النعم، ويصبر عند النقم من الإنسان الذي يكفر عند النعم، ويجزع عند النعم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: جعل الله ﷻ له مدارك يعرف بها الخير من الشر، ﴿سَمِيعًۢا﴾: يسمع، ﴿بَصِيرًا﴾ يبصر، عاقل يميز الأمور عنده قدرة على الحركة والاكتساب، فهو مزود بكل ما يحتاج إليه لمصالحه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ﴾ أي: أرشدناه، والمراد بالهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أرشدناهم وبيَّنا لهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ لأن الهداية على قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهي عامة لكل الخلق -المؤمن والكافر-، وهداية توفيق، وهذه خاصة بالمؤمن الذي يستجيب لأوامر الله ﷻ، فهذا يهديه الله بمعنى أنه يثبته على الحق، ويوفقه للخير إذا هو أقبل على الخير، ورغب في الخير، فكلٌ ميسر لما خلق له، ما تركه الله ﷻ في عماية وحيرة، بل إن الله ﷻ بيَّن له طريق الخير، ورغبه فيه، وأمره به، وبيَّن له طريق الشر، وحذره منه، ونهاه عنه، ثم إن الإنسان له اختيار وله مشيئة، وليس مجبرًا على أفعاله.

ولهذا قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، فالمؤمن يشكر الله ﷻ، ويسلك طريق الخير الذي بيَّنه الله له، وأمره به، وأما الكافر والمشرك، فإنه يسلك طريق الشر الذي نهي عنه وحذر منه، فيرتكب ما نهاه الله عنه؛ اتباعًا لهواه وشهوته ورغبته.

ثم بيَّن الله ﷻ جزاء الفريقين -الشاكر والكفور-، فقال ﷻ في الكفور: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، من سلك طريق الشر، فإن الله ﷻ أعد له عذابًا أليمًا، وهذه السلاسل لا يعلمها إلا الله ﷻ.

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: في أيديهم، تُغَل إلى أعناقهم، فيجمع عليه بين السلاسل والأغلال، قال ﷻ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، نسأل الله العافية.

﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: وأعتدنا لهم عذابًا يستعر في أجسامهم، ويتوقد في جثثهم، وهي النار -والعياذ بالله-، فالسعير من أسماء النار، السعير والجحيم من أسماء النار.

ثم ذكر الله ﷻ الصنف الثاني، وهم أهل الإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾: الأبرار جمع بَر، وهو المطيع المتقي.

فالمؤمنون يوم القيامة على ثلاث طبقات: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، والظالم لنفسه هو العاصي الذي معصيته دون الشرك، فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه، ومنهم المقتصد الذي يفعل الطاعات، ويترك المحرمات، فهو اقتصر على فعل الطاعات، فلم يترك منها شيئًا، وتجنب المحرمات، فلم يفعل منها شيئًا، وهؤلاء هم الأبرار، ثم السابقون المقربون، وهم الذين فعلوا الطاعات، وتركوا المحرمات، وفعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، ودرجاتهم يوم القيامة بحسب ذلك، قال ﷻ: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ثم ذكر جزاء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾: الكأس هو وعاء الشراب، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾: أي خلطها، وما تمزج به، ﴿كَافُورًا﴾: اولكافور نبت طيب الرائحة، بارد المذاق، فهم يشربون شرابًا مطيبًا بالكافور.

ومصدر هذا الشراب ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: منها، ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، والمراد العبودية الخاصة، وهم أهل الإيمان، وإلا فإن كل

الخلق عباد الله -مؤمنهم وكافرهم- العبودية العامة، قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، هذه عبودية عامة، وأما العبودية الخاصة، فإنها للمؤمنين، فكلمة ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ يراد بها المدح.

وهذه العين ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: على مطلوبهم ورغباتهم، فهم أينما أرادوها وجدوها، ولا يحتاجون إلى كلفة وحفر آبار وتعب ونفقات، فهي ميسرة، يفجرونها تفجيرًا حسب طلبهم، وليس فيها شح وانقطاع مثل ما في الدنيا، ولا تنفد على طول الوقت وكثرة لاستهلاك.

ثم ذكر ﷻ أعمالهم التي أهلتهم إلى هذه الكرامة، قال ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

فذكر في هذه الآيات صفات الأبرار وهي:

الأولى: أنهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: النذر هو أن يلزم الإنسان نفسه بطاعة لم تكن واجبة عليه بأصل الشرع، وهو نوع من أنواع العبادة، فلا يجوز النذر للولي، ولا للقبر، ولا للمخلوق؛ لأنه نوع من أنواع العبادة، فمن نذر لغير الله ﷻ، فهو مشرك الشرك الأكبر، فالذين ينذرون للقبور والأضرحة، وتجمع نذروهم في صناديق تسمى صناديق النذور، ويقتسمها الطواغيت والسدنة، هذه نذور شركية - والعياذ بالله -، وإنما النذر المشروع الوفاء به

هو نذر الطاعة، وقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ». «رواه البخاري».

فنذر الطاعة مثل: أن ينذر صلاة، أو صيامًا، أو عمرة، أو حجًا، أو صدقة، أو غير ذلك من أعمال الخير، فإذا نذر الإنسان نذر طاعة، وجب عليه الوفاء به؛ لأنه التزم به لربه ﷻ، فيجب عليه الوفاء، قال ﷻ: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، فهذا فيه أن الله ﷻ يعلم النذر، ويعلم النفقة التي ينفقها الإنسان، فيجازي عليهما، فالوفاء بنذر الطاعة واجب، وأما نذر المعصية، فلا يجوز الوفاء به؛ كما قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ». فمن نذر للقبر، وللضريح، وللأموات، ويتقرب إليهم، فإنه لا يجوز له أن يفي بهذا النذر؛ لأنه نذر معصية، وكذلك من نذر ألا يصل رحمه، أو نذر ألا يتصدق، فإنه لا يفي بهذا النذر، يتركه، وهل تجب عليه كفارة يمين، أو لا تجب؟ هذا محل خلاف بين العلماء، إنما اجمعوا على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية، ويجب التوبة منه.

الثانية من صفاتهم: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾: يخافون من يوم القيامة وما فيه من الأهوال، ولما خافوا منه، استعدوا له، فليس المراد مجرد الخوف منه فقط، لكنه خوف معه عمل واستعداد.

﴿مُسْتَطِيرًا﴾: شره منتشر، وليس شره في مكان خاص، أو في وقت خاص، وإنما هو منتشر.

والثالثة من صفات الأبرار: في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: يتصدقون بالطعام على المحتاجين، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي هم يرغبون فيه، فهم يؤثرون على أنفسهم، أما أنك لا تطعم من الطعام إلا الذي لا تريده، أو أنه طعام فاسد، فهذا ليس تقربًا لله ﷻ، وإنما هو تخلص من هذا الطعام فقط، إنما المزية والمدح لمن يطعم الطعام وهو يحبه، إما لأنه جائع، وإما لحاجته إليه، لكنه يؤثر ثواب الله ﷻ، فيطعم الطعام على حبه، قال ﷻ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ هذه مصارف الأطعام وهي: المسكين وهو الذي يجد بعض الكفاية، والفقير وهو الذي لا يجد شيئًا واليتيم وهو من مات أبوه وهو دون البلاغ ولا مال له والأسير وهو أسير الحرب ولو كان كافرًا؛ لأنه لا يستطيع السعي للاكتساب وإغناء نفسه.

يأسرون المسلمين، وإنما يأسرون الكفار، فإذا أُسِر الكافر، فإنه يكون بحاجة إلى الإحسان، فيُحسن إليه، ويخلصون النية في إطعام هؤلاء ويقولون لهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾أي: رجاء ثوابه.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾: منكم على إحساننا إليكم على إحسانهم عليهم، أن يردوا عليهم إحسانهم، أيريدون المعاوضة؟ لا. لايريدون عوضًا عما أنفقوا.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا نريد ثناءً منكم.

وإنما الحامل لنا على إطعامكم ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾: فما فعلنا هذا إلا خوفًا من ربِّنا ﷻ، ﴿يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة، ﴿عَبُوسًا﴾ أي: صعبًا ليس فيه

بشاشة، ولكنه صعب شديد عسير، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ أي: شديدًا مما يجري فيه من الأهوال.

ثم بين جزاءهم فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾؛ لأن من استعد لهذا اليوم بنية صالحة وإخلاص، وقاه الله ﷻ شره، وسهله عليه، وهذا دليل على أن المسلم يستعد لهذا اليوم، ويخلص عمله لله ﷻ.

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾: النضرة هي اللون الحسن، والمنظر البهي في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾أي: في نفوسهم.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾: جزاهم الله ﷻ بما صبروا في الدنيا على المشاق، وعلى المكاره، وعلى الشدائد، ولم يجزعوا؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ في أول السورة، فهؤلاء أُبتلوا، فصبروا.

﴿جَنَّةً﴾: جنة عرضها السموات والأرض لايعلمها إلا الله ﷻ، ﴿وَحَرِيرًا﴾: فلباسهم في الجنة من الحرير، وهو أطيب الملابس، وألين الملابس، وأنعمها، وأحسنها منظرًا.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: على السرر، والاتِّكاء يدل على الراحة، فالمتكئ مرتاح.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿شَمْسًا﴾ أي: حَرًّا، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: بردًا، فهم لا يقاسون من حَرٍّ أو من برد، بل يكونون بين الحر والبرد.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي: ظلال الجنة، فهم في ظلال بارد طيب، فأينما كانوا، فهم مظللون، ما عندهم شمس، ولا عندهم برد، أينما ذهبوا وأينما جلسوا في الجنة، فكلها مظللة.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ : ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي : قُرِّبت إليهم الثمرات فهي سهلة التناول.

نسأل الله من فضله وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

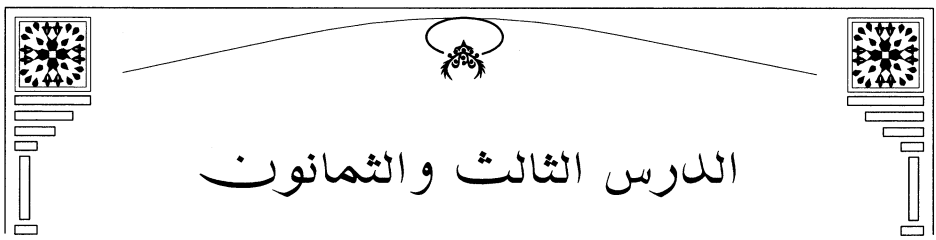

الدرس الثالث والثمانون

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ١٥- ٣١].

ما زال السياق في ذكر أحوال أهل الجنة، وما أعد الله ﷻ لهم من الكرامة، وذلك أن الله ﷻ ذكر في هذه السورة أصنافًا من كرامات أهل الجنة، وما أعد لهم فيها من أنواع النعيم، ومنها ما جاء في هذه الآيات:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بالشراب، وما يريدونه.

﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ : آنية جمع إِنَاء، وهو ما يُشرب به، والأكواب جمع كوب، وهو ما يشرب به، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضة كذلك.

﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ : وليست من الزجاج، ولكنها في صفائها ولونها وجمالها في شكل القوارير من الزجاج، وفي مادتها هي من الفضة؛ لأن أواني الجنة من الذهب، أو من الفضة، وهي مخلوقة للبقاء والدوام، لا تتكسر كما في الدنيا.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدرها أهل الجنة على حسب حاجتهم، أو قدرها الخدم والغلمان الذين يطوفون بها على أهل الجنة، فهي لا تزيد عن حاجتهم ولا تنقص عن حاجتهم، قدروها بحسب الحاجة لا تزيد ولا تنقص.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾، ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ : أهل الجنة يسقيهم الخدم، والكأس المراد بها الخمر، فالجنة فيها خمرٌ، لكنه خمرٌ طيب مسلوبة عنه صفات خمر الدنيا، فخمر الدنيا خبيثة، محرمة، وضارة، وأما خمر الآخرة، فهي طيبة ولذيذة وصحية، ليس فيها غول، أي: ولا تؤثر على العقول كما في خمر الدنيا.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ : الزنجبيل نبت طيب الرائحة، لذيذ المذاق، ولكن ما في الدنيا يختلف عما في الآخرة، فالأسماء والمعاني موجودة ومشتركة، فالدنيا فيها زنجبيل، وكذلك الآخرة فيها زنجبيل، والجنة فيها أعناب، والدنيا فيها أعناب، الدنيا فيها رمان، والجنة فيها رمان، والجنة فيها نخيل، وكذلك الدنيا فيها نخيل، ولكن ليس في الدنيا إلا نموذج مما في الآخرة، وهو يختلف اختلافًا كبيرًا.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ : السلسبيل هو الشيء السلسل، شرابها سلسلٌ طيب المذاق.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يكبرون، بل يستمرون على شبابهم وجمالهم ونظافتهم.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الغلمان ، ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ : واللؤلؤ وهو الجواهر الطيبة النفيسة التي تستخرج من البحر، وهي من أجمل أنواع الحلي في صفائها ولونها وجمال منظرها.

﴿مَّنثُورًا﴾ من عقده منتشرًا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: إذا نظرت «﴿ثَمَّ﴾» أي: هناك، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ : إذا رأيت الجنة على وجه العموم، وأهلها وخدمها، رؤية عامة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ مناظرها ناعمة جميلة ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: ليس له حدود فأدنى أهل الجنة يُعطى أمثال الدنيا وما فيها.

ثم ذكر ﷻ لباسهم، فقال ﷻ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ : السندس هو ما رَقَّ من الحرير، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ : الإستبرق هو ما غلظ من الحرير، ولون ثيابهم من اللون الأخضر، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ : وهو أجود أنواع الأقمشة في الدنيا، ويُحرم على الرجل.

﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ : ﴿وَحُلُّوٓا﴾ أي: أُلبسوا في أيديهم، ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ : وليست من الحديد، أو غيره بل من فضة الجنة، قدرها إلى الله ﷻ.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ : للأبدان، وللبطون، وللقلوب، فهذا الشراب يُطَيب؛ كما أن مظاهرهم طيبة، فإن الله ﷻ أيضا يُطَيب بواطنهم

بهذا الشراب، الذي يُطَهِّر قلوبهم، ويطهر صدورهم، ويطهر أجوافهم من العلل والأسقام والتغيرات، فأهل الجنة لا يبولون، ولا يتغوطون، وإنما يصيبهم الرشح، وهو شيء من العرق رائحته أطيب من المسك.

ويقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من هذه الأوصاف، ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على أعمالكم، فالجنة لا تدرك بالتمني، وإنما تدرك بالعمل الصالح، وركوب المشاق في الدنيا من الأعمال الصالحة: بالجهاد في سبيل الله، بالصيام، بقيام الليل، بالإنفاق، فالجنة غالية؛ كما في الحديث قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[1]، فهي لا تدرك بالأماني، أو أن الإنسان يحكم لنفسه بأن له الجنة؛ كما قال اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥]، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] إنه يضمن لنفسه أنه سيكون من أهل الجنة.

فالإنسان لا يجزم لنفسه بالجنة، مهما بلغ من العمل، ومهما بلغ من الطاعة والتقوى، فإنه يخاف، ولا يجزم بأنه من أهل الجنة، وإنما التوفيق بيد الله ﷻ، والعمل ليس ثمنًا للجنة، وإنما هو سببٌ لدخول الجنة، وفي قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالباء ليست باء الثَّمَنِيَّةِ والعوض، ولكنها باء السببية، أي: بسبب ما كنتم تعملون، وإلا فإن النبي ﷺ -كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه- قال: «لَنْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠).

يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا»(١).

فالمؤمن يرجو الله ﷻ من فضله وإحسانه، ولهذا جاء في الحديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَأَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبَعِ تَبَضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ ﷻ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ قَالَ: فَفَعَلَ فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ»[1].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾: عند الله ﷻ، فالله غفور شكور، ومن شكره لكم أنه أدخلكم الجنة، هذا من شكره لكم على الطاعة، وعلى العمل الصالح، شكر الله.

ثم إن الله ﷻ خاطب نبيه ﷺ في ختام السورة خطابًا خاصًا، فقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾: نزلناه مفرقًا، فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقًا على حسب الوقائع والحوادث في مدة ثلاث وعشرين سنة، هي حياة رسول الله ﷺ في الرسالة، وكان القرآن ينزل عليه ﷺ في المناسبات وبالتدريج؛ لأن القرآن لو نزل جملة واحدة، ما استطاع الناس أن يعملوا به، فهذا من رحمة ﷻ أنه أنزله مفرقًا.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٤١)، وتمام في الفوائد (٢/ ٢٥٩).

قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، يقولون: لماذا لم ينزل القرآن على الرسول ﷺ جملة واحدة؟ وهذا من تعنتاتهم، وقد بيَّن الله الحكمة في ذلك، فقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: نزَّلناه متتابعًا، وليس جملة واحدة؛ من أجل أن يسهل العمل به، ولأجل تثبيت فؤادك حينما ينزل عند كل حادثة ما يناسبها ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، أي: وفسرناه وبيناه تبيينًا.

﴿نَحْنُ﴾: هذا من باب التعظيم، الواحد يقول: «نحن» من باب التعظيم، حتى إن المخلوق، الملوك يقولون: «نحن فلان بن فلان، نأمر بكذا».

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: استعن بالصبر على تحمل هذه الأمانة، وهذا القرآن والعمل به، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، قال ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، فالذي يعين الرسول ﷺ هو الصبر وكذلك الصبر عليى أذي الكفار، وكذلك فالصبر عدة المتقين.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾: فإنك ستلاقي من الكفار والمنافقين من يريد صرفك عن هذا القرآن، ويحاول معك أن تترك هذا القرآن، أو تترك بعضه، فلا تطعه، والمراء ﴿ءَاثِمًا﴾ بأفعاله، ﴿كَفُورًا﴾ بقلبه.

تعليم للرسول ﷺ وتعليم للأمة أنها لا ترضخ للكفار وللمنافقين في كل مكان، وفي كل زمان.

ومما يستعين به رسول الله ﷺ على تبليغ الرسالة: ذكر الله؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾ أي: لازم الذكر والدعاء والاستغفار في

الصباح والمساء، الأوراد الشرعية والأذكار والأدعية هذا يعينك على مشاق الحياة، ويعينك على العمل، فالذكر يحيي القلب، ويعينك، وينشطك على العبادة، ويكون ﴿بُكْرَةً﴾ في أول النهار، ﴿وَأَصِيلًا﴾ في آخر النهار.

هذه الأمور التي يواجه بها أذى الكفار:

الأمر الأول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

والثانية: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

والثالثة: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

والرابع: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾: وهو تهجد الليل، فقيام الليل له تأثير عجيب في المسلم إذا اعتاده، وإذا داوم عليه، ولو كان قليلًا، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾، ما قال ﷻ: «والليل كله فاسجد»، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: خصص جزءًا من الليل، داوم عليه؛ يعينك على دنياك وآخرتك.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾: نزه الله ﷻ، سبح الله ونزهه عما لا يليق به.

ثم ذكر الله ﷻ حالة هؤلاء المعرضين والمعارضين من الكفار والمشركين والمنافقين، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: المعارضين والمعرضين أن يجعلوك تتنازل عن القرآن، ما السبب؟ لأنهم ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وهذا القرآن يحذرهم منها، ومن الاغترار بها، والقرآن يريد منهم أن يعملوا للآخرة، وهم لا يؤمنون بالآخرة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: يتركون وراءهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، وهو يوم القيامة، فهم يحاولون مع رسول الله ﷺ أن يتنازل عن شيء من الدين، وعن الأوامر والنواهي، ويقولون: إن هذا تشدد، كما يقال الآن.

ولهذا قال مستدلًا على البعث: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾: في البداية، ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾: قَوَّيْنَا وَأَحْكَمْنَا خلقهم، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾: بعثناهم بعد الموت على شكل آخر غير شكلهم في الدنيا، فالذي يقدر على البداية يقدر على الإعادة من باب أولى، هذا من الأدلة على البعث، أن الذي أنشاهم من الأول لهو قادرٌ على أن يعيدهم.

ثم قال ﷻ واصفًا هذه السورة بجملتها، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾: لما فيها من العظات والذكر، وما فيها من وصف أهل الجنة، ووصف أهل النار، وحالة رسول الله ﷺ في الدعوة للكفار، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، فهي سورة يتذكر بها من له قلب، ويعتبر بها من له قلب رغبة في الآخرة بخلاف الذين يحبون العاجلة وينسون الآخرة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: في هذه الآية سرٌ عظيم، فأنت تقوم بالعمل؛ لأنه أعطاك القدرة، وأعطاك المشيئة، وأعطاك الاختيار، ولم يجبرك كما تقول الجبرية، بل أعطاك الاختيار، فأنت الذي تؤمن، وأنت الذي تكفر، وأنت الذي تطيع، وأنت الذي تعصي باختيارك، ولو أن أحدًا أجبرك، صرت مكرهًا، والمكره لا يؤاخذ، لكن أنت باختيارك، وبإرادتك، وبطوعك تقدم على العمل: إما خيرًا، وإما شرًا.

فإذا سألك أحدٌ: هل العبد مسير أم مخير؟ فتقول: العبد مسير مخير، فهو مسير في أفعال الله فيه تجري عليه، ولو لم يرد، أما من حيث أفعاله هو، فإنه مخير، فهو مسير ومخير، من حيث القضاء والقدر، فإن العبد مسير، فإنه لا ينفك عن قضاء الله وقدره، ومن حيث أفعاله هو، فإنه مخير، فهو الذي

يطيع وهو الذي يعصي، وهو الذي يُسلم، وهو الذي يكفر، فهو مخير من ناحية عمله، فإن قلت: إن الإنسان مخير فقط، فإنك مخطئ، وإن قلت: إن الإنسان مسير فقط، فإنك مخطئ، فلابد أن تقول: إن الإنسان مسير ومخير.

قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: هذا فيه ردٌ على القدرية، فعندنا طرفان: الجبرية يقولون بأن العبد مجبر، ولا اختيار له، ورد على القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه ولم يقدر عليه الله شيئًا من أفعاله.

فقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ رد عليهم حيث جعله خاضعًا لمشيئة الله.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لا يخفى عليه شيء، ﴿حَكِيمًا﴾: حكيمًا في أفعاله وأقداره، يضع الأمور في مواضعها فيمن يستحقها ويضع عذابه فيمن يستحقه.

ولهذا قال: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي: أنه يهديه، وييسر له الخير، ويفتح له باب العمل الصالح.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فرتب العذاب على الظلم والرحمة على العمل الصالح.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.